بالامكان تمييزهم من بينهم جميعا · كان قد جمع الكثيرون هنا ، صيد اكثر مما كان متوقعا ، داكنو الثياب ، بيض العمائر (مناديل ملفوفة حول طرابيش صغيرة للرجال ، ومناديل بيض ومطرزة للنساء) · كان ثمة من جلسوا وتمايلوا بظهورهم كما لو كانوا في صلاة ، بينما دحرج آخرون سبحات العنبر العسلية بشكل عام ، او مجرد سبحات سوداء · وهنالك من كتفوا ايديهم الكبيرة الخشنة ، أيدي فلاحين ، على صدورهم ، بينما راح آخرون يفركون اعواد القش والعشب بأيديهم لمجرد ان يفعلوا شيئا ما ، وعيونهم جميعا كانت تجولنا ، وتتعقب كل حركة لنا ، ولا يقولون شيئا سوى تلك التنهيدة التي تطلق بين الحين والاخر « اخ يا رب » ·

اما بين النساء فقد كانت تدور جلبة باكية رتيبة ، كما لو كانت غير صادقة ، وحين كان البكاء يعول احيانا ويختنق ، كان بعضهن يخرجن اثداءهن لرضعهن ، وبعضهن يقنعن معظم وجوههن تاركات فيها عيونا خائفة ، وبعضهن كن يثرثرن احيانا ويصرخن بالصبية الذين نفد صبرهم فراحوا يقفزون ، ويقتربون منا ، ويتكئون بأكف ارجلهم الحافية على ركب ارجلهم الاخرى ، ويلتهموننا باعينهم ، مستغربين كل ما نفعله ، كما لو كان عرضا مسرحيا · الا ان ثمة بكاء ما كان ينفجر بين حين وآخر ، فاتحا معه كل مغاليق القلوب والدموع ، فيعم عندها بكاء نسوي شامل ، الى أن يصرخ بهن احد الشيوخ يزجرهن ، فيكبتن بكاءهن شيئا فشيئا ·

ولكن عندما انفجر احد البيوت الحجرية بصوت يصم الآذان فجأة ، وبعمود من الغبار المتصاعد ، وشوهد سقفه من هنا وهو يرتفع قطعة مسطحة واحدة وسليمة ، كما هي ، ثم تصدعت وتحطمت في الفضاء فجأة ، فتناثرت وسقطت كتلا كتلا ، نتفا ، نتفا ، بغبار وبرد من حجارة ، قفزت امرأة كان البيت ، كما يبدو ، بيتها ، وانفجرت بصرخة متوحشة ، وانتصبت تهم بالجري في اتجاهه ، طفل على يديها واخر بائس كان قد بلغ السن التي يستطيع الوقوف فيها على رجليه ، يتعلق بذيل ثوبها ، وهي تصرخ وتشير بيديها ، وتتكلم وتشهق ، فانتصبت رفيقة لها تتبعها اخرى وشيخ ، ثم بدأ الآخرون بالنهوض بينما اندفعت هي تركض ، والطفل المتعلق بذيل ثوبها ينجر خلفها برهة ثم تهادى على الارض يثغو باكيا وعجزه الاسمر عار · انطلق احد شبابنا يعترضها صارخا بها يستوقفها · فراحت تتكلم شارعة بالصراخ اليائس بين الفينة والاخرى وهي تدق صدرها بيدها الفارغة ، وقد أدركت دفعة واحدة ، كما يبدو ، بأن الامر ليس مجرد انتظار تحت اغصان الجميزة لسماع ما سيقوله اليهود والعودة بعد ذلك الى البيت ، وانما هي النهاية لبيتها ولعالمها ، وان كل شيء كان قد أظلم وتهدم ، لقد تعرفت فجأة الى شيء ما ، مبهم ، فظيع ، لا يصدق ، ينتصب امام عينيها دونما حاجز ، ملموسا وقاسيا ، وجسدا لجسد ، ويستحيل رده · وكان ذلك الشاب قد تجهم كمن سئم الاستماع فعاد وصرخ بها يأمرها أن تعود الى مكانها ، الا ان المرأة كانت قد تخطت كل الانذارات، فنحته من دربها وراحت تجري الى مكان الانفجار ، غير انه وبحركة من يده كان قد أمسكها بمنديلها ، فانحسر شعرها وتشعث امعانا في اهانتها ، الامر الذي اثار امتعاض الجميع ، وغضبا جامحا في قلب المرأة · فاختطفت منديلها وعادت تغطي به رأسها وطفلها الذي كان على ذراعها بحركة محتجة ودفعة واحدة ، بينما راح طفلها يزعق بكل ضالته ، ثم اسرعت وامسكت بذيل ثوبها الثقيل وراحت تعدو في اتجاه بيتها الذي كان قد هدم ·

ـ « دعها » ، قال شخص ما ، « فانها ستعود » ·